المحور الأول: نظريات ومفاهيم علم الاجتماع المخاطر.

- نظريات علم الاجتماع المخاطر (أولريش بيك، أنتوني غدنز، إلياس نوبرت):

المحاضرة الرابعة: نوبرت إلياس Norbert Elias:

لعل أهم المخاطر التي يتحدث عنها نوبرت إلياس، نجد المخاطر الاجتماعية والنفسية؛ التي ترتبط بما يكمن في البنية الاجتماعية، من مصادر لإحداث ضرر للأفراد والجماعات الذين يعيشون في كنف هذه البنية، وما يتعرض له الانسان من خطر اجتماعي يتخلق داخل البناءالاجتماعي، ويكون الخطرالاجتماعي ناتجاعن عوامل داخلية عديدة، كالتحضر، الدولة، الكبت، المعاناة، عدم المساواة وانخفاض مستويات نوعية الحياة التي يعيشها الفاعل الاجتماعي وغيرها

حيث يؤكد الأسلوب التصويري المجازي الذي وصفت به مقاربة نوربرت إلياس ضمن علم اجتماع تصويري مجازيFigurational، أو علم اجتماع المعامل ProceccDocuologyالذي فضله كتسمية نتيجة المعالجة التي تتم بواسطتها العمليات التكوينية للكائنات البشرية، التي تشكلت في ظل علاقات التبعية المتبادلة والتي تخلق المعاناة والخضوع، و البناءات الاجتماعية التي يكونونها مع بعضهم بعضا، ذات الآليات الناشئة، والتي لا يمكن التقليل من شأنها، باعتبارها أفعالا أو دوافع فردية تنشأ من أفكار عدم اليقين، وانعدام الآمن أو المخاطرة.

إذ تشكل هذه الآليات الناشئة نمو، وتطور، ومسار حياة الأفراد، ويؤكد أن التصورات في حال سيولة وتحول دائم، وأن التحولات الطويلة المدى في التصورات الاجتماعية البشرية ،غير مخطط لها وغير منظورة في أغلب الأحوال، وينظر إلياس إلى تطور المعرفة على أنه يتم داخل مثل هذه التصورات ، التي تعتبر بنية داخلية للأفراد، والتي تعيد تركيب بناه ارتكازا على الدلالة الاجتماعية التي يتجه إليها كبنية خارجية،

والتي أنتجت فعل المخاطرة وأخرجته إلى الوجود، لأنها تتصل مباشرة بتكوينه عبر مسارات تاريخه، وإيديولوجية، وبنيته العميقة. ومن ورائها الجماعة الاجتماعية التي تحرك إرادتها المعبرة إما أمنا أو خطرا يتواجد في المجتمع.

وهذه البنى المرتبطة بعلاقات التبعية البينية التي تربط الافراد فيما بينهم، مشكلين تكوينيا يظهر بأحجام متفاوتة في أفعال تابعة بينيا ببعضها البعض، منفذة باستقلالية نسبية تمثل نقلة على الرقعة الاجتماعية وتثير بشكل لا مفر منه نقلة مضادة، يقوم بها عدد كبير من الافراد وسط نسيج متحرك متغير للعديد من التبعيات المتبادلة التي تربط الافراد بعضهم ببعض، وصولا الى العلاقات الدولية. وبهذا يحيل تصور الفرد الى أناس تابعين بعضهم لبعض، لكن بصيغة المفرد، ويحيل تصور المجتمع الى أناس تابعين بعضهم لبعض لكن بصيغة الجمع. مؤكدا ان ما يفرق بين هذه التكوينات هو طول سلاسل العلاقات المتبادلة التي تجمع الافراد وتعقيداتها ويكونون مرهونين بها.

وهذا ما بينه إلياس في كتابه "مجتمع البلاط société de cour، ومختلف الضغوطات التي يواجهها نبلاء البلاط في عهد لويس الرابع عشر، الذي لا يستطيع ان يفعل كل ما يحلو له وإن كان هامش فعله أكبر من هامش الفاعلين الأخرين في المجتمع الفرنسي آنذاك، ذلك لأنه هو أيضا حبيس شبكة من التبعيات البينية الخاصة بمجتمع البلاط، التي تقضي على راحته النفسية وحريته الشخصية وما ينعكس عليها من مخاطر. مفهوم التبعيات البينية ومفهوم هامش الفعل الملازم له يسلطان ضوء جديدا على موضوع دور نبلاء البلاط عبر التاريخ .

فنظر لفهم البلاط للنبالة، حيث تحدد الرتبة والمكانة وفقا لحجم الإنفاق، باعتباره نقيضا للفهم الاقتصادي للبرجوازية، حيث يخضع نمط الاستهلاك للدخل. وقدم تحليل مجتمع البلاط تصحيحا ملموسا لمناقشات ماكس فيبر العقلانية الأدواتية (Instrumental) والقيمة (Value Rationalty)، وكذا تعديل التناقض

الثنائي البسيط لدى ماركس بين الإقطاع والرأسمالية، وكانت هذه التنظيرات محل اهتمام كتاب عملية التحضير الذي اعتمد على ماركس Marx و مانهايمMannheim و فيبر Fiber وسيميل Simel، و فرويد Freud في تناول التحولات السيكولوجية والسلوكية بين الطبقات العليا العلمانية في الغرب، وأظهر أن هذه التنظيرات مرتبطة معا بعمليات تهدئة داخلية وتكوين الدولة، وتساءل كيف أن طبقات يعينها في الدول المتقدمة في غرب أوروبا، تفكر في نفسها على أنها متحضرة؟، وكيف يصبح ذلك معمما بوصفه دلالة على التفوق الغربي على الثقافات غير الغربية؟.

الأمر الذي رصده إلياس ضمن تحولات بعيدة الأجل في الأساليب والقوانين السلوكية، وفي حدود التعارض بخصوص الوظائف الجسدية المادية، وهي مرتبطة كلها بعملية التحول الداخلي Internalization للقيود الاجتماعية، وتتبعت أعماله تأسيس إعادة مميزة متعلقة بتزايد قيود الأنا العليا Superego على الدوافع والمواجهات الفاعلة بما فيها السلوك العنيف والاجرامي، باعتباره جانيا مكملا لمجتمع البلاط، وأصبحت أساليب الطبقة العليا وحساسيتها المؤثرة – من خلال عمليات التمييز والتقليد– معممة بوصفها نماذج للسلوك المهذب، وأصابها اللبس المنتظم من خلال طبقة Stratum أخرى، تعمل على السيطرة المتزايدة على الغرائز البدنية والوجدانية، والمتمثل في طبقة النبلاء والبرجوازية، حيث لم يعد الأمر متعلقا فقط بتطبيق قواعد اللياقة والحياء والتحاشي، وإنما بالوصول إلى الضبط الذاتي لكل واحد، خاصة فيما يتعلق بالاحتكاكات الجسدية والجنس والعنف.

ومع العلم أن سلوك التهذيب لا يختلط في تعميمه الأوسع مع تكاثر الممنوعات التي تمس الجنس والنظافة واللياقة واستخدام العنف. فهو ليس مجرد قانون إنه ثقافة أيضا، حيث يؤكد إلياس في كتاباته عن تطور آداب السلوك في جانبه الحديث، يتصف باستبطان متزايد للمعايير، مما يجعل الآليات الاجتماعية للمنع لا ضرورة لها. بالنسبة له، ليست الحضارة فقط مسألة لياقة في المجالس الرسمية، فهو يعلم جيدا أن

هناك ممنوعات وطقوسا معقدة قد توجد عند شعوب تعتبر بدائية. فحركة الحضارة تسير عن طريق مبادئ كونية وتصيب وعي الفرد بالذات، باختصار لم يعد الأمر متعلقا فقط بقواعد السلوك، بل بمشاعر داخلية تولد إحساسا بالذنب وندما، وتعيد إنتاج نفسها بنفسها وتشبه الكبت عند فريد والتي من شأنها أن تخلق أخطار ومخاطر تهدد الفرد والجماعة والمجتمع ككل.

وذلك لأن التبعات البينية التي يعلق الأفراد بها لا تقوم بدور القيود الخارجية فقط، إنما تتدخل في صياغة البنى الداخلية لشخصهم. وبذلك ينخرط الفرد طوال حياته في عدد من شبكات العلاقات التي سبقته في الوجود كالأسرة وجماعة اجتماعية... والتي هي في الغالب منتجات تاريخية طويلة وهي تساهم في تكوين أشكال ميوله وفكره، وتكون كبصمة اجتماعية تمهر الشخصية، وهي منتج تكوينات عدة يتصرف الفرد في داخلها لتبدو كمظهر شامل، ولكنه متغير دائما يشكله الافراد

حيث تسعى هذه التبعات البينية لتفادي الخطر والمخاطر عن طريق التهديد و العقاب، ويحرص الأفراد على عمليات ضبط النفس، ويسعون إلى المعاملة المتماثلة من خلال علاقاتهم بالآخرين، والعمل على توفير السياق المناسب لتفاعلاتهم الاجتماعية الآمنة والمستقر، ورغم أن هذا التحول مبني وموجه؛ لكنه أعمى وغير مخطط له، ضمن تاريخ الوسائل التي يوليها إلياس مكانة مركزية في تشكيل الدولة والأصول الاجتماعية Sociogenesis للدول الاستبدادية، وعمل على إظهار كيف ان عملية التحول الداخلي للقيود والتحول الناتج في القوانين السلوكية؛ مرتبطة بالتحولات في تقسيم العمل، والتحولات الجغرافية، والتهدئة المجتمعية (Societal Pacification)، والتحضر، والنمو التجاري، والاقتصاد النقدي.

حيث يؤكد أن نمو الاقتصاد النقدي الحضري، يؤدي إلى تسهيل إنجاز السلطة المركزية في الدولة، واحتكار العنف كأحد أهم أنواع المخاطر التي تكلم عنها أولريش بيك، وكان تزايد استخدام مثل هذه الدوائر الاقتصادية قد أتاح المجال أمام تزايد الموارد العسكرية للنبلاء المحاربين، الذين كان مصدرهم الأساسي

للسلطة الاقتصادية والعسكرية هو التحكم في الأرض. وأدى هذا إلى تغيير الطبقة المحاربة المستقلة سابقا إلى طبقة عليا تابعة للبلاط، ويسهل الهدوء الأكبر حجما التجارة والنمو الاقتصادي، الذي يؤدي بدوره إلى تأمين السلطة الاقتصادية والعسكرية لسلطة المركزية.

كما يؤدي إلى تزايد سلطة الطبقات الوسطى، وعندما تتعادل كل من السلطة المركزية، ويؤدي إلى تزايد سلطة الطبقات الوسطى، وعندما تتعادل كل من السلطة الارستقراطية المتدهورة، وسلطة الطبقة المتوسطة المتزايدة تقريبا، فإنه يمكن للأسر الحاكمة أن تطالب بـ السلطة المطلقة، وعادت هذه التطورات المنتظمة على نبلاء البلاط بمزيد من الأنماط المقيدة للسلوك، أخذت القيود الخارجية المرتبطة بعلاقات السلطة لتكوين الدولة في التحول داخليا، بصورة تدريجية، بوصفها قيودا ذاتية، مسببة تحولا مميزا في العادات وبناء الشخصية، التي تبحث عن كيفية استخدام الخطر للوصول إلى المزيد من الأمن والخير والسلامة، أو البحث عن التوازن بين الخيارات التي تحمل في طياتها الأمن والخطر

كما يؤكد إلياس أن عمليات التحضير، ترتبط في أحد جوانبها بعمليات التحول الروتيني(Routinization)، التي تؤدي إلى مشاعر بالتفاهة الشعورية بين الناس، ونتيجة ذلك، قامت المؤسسات بتطوير ما يؤدي وظيفة تفكيك التحول الروتيني من خلال الحركة، والقدرة الاجتماعية، ولإثارة، والتجديد وهو ما يضعنا أمام ملامح مشتركة لبعض الأنشطة الرفيعة، مثل الفنون، والانشطة الدنيا، مثل الرياضة، وجعل تحليله مواكبا للأحداث في مؤلفهThe Germans ، وكان اهتمامه المحوري ينصب على تطوير العادات الألمانية ودمجها مع مواصفات عسكرية، وكيف شكل ذلك أساسا مهما لإعلاء شأن النازية، وما جلبته من أخطار ومخاطر على العالم بأسره.

إن أفضل تقديم لأسلوبه النظري هو مؤلفه WhatisSociologt، حيث يعيد رأيه بوجوب أن يتفادى علماء الاجتماع معاملة الأفراد أو المجتمعات ككل، بوصفهم معطيات ثابتة وهذا – كما يرى إلياس–

انعكاس للغة، وصياغة مفهومه غير ملائمة تقلل من العمليات التي تقوم بها الدول، كما يتطلب علم الاجتماع العلمي (Scientific Dociology) أن تحل رؤية قائمة على التعددية للناس العامة، بدلا من الرؤية الفردية المقربة (Closed Person view)، وهذا هو أساس الرؤية المتصلة للسلطة المرتبطة بوظائف الأفراد بعضهم ببعض، وهو اعتراف بأن سيكولوجية الأفراد وطريقة الرؤية تظهر من منطلقات تصويرية يكون فيها الفرد مشاركا.

لتظهر بهذا قدرة إلياس على المزج بين الأوصاف الجزئية، والأوصاف الكلية للعمليات الاجتماعية لتكوين المخاطر، وعلى تجاوز الانقسام الثنائي بين الفرد والمجتمع، وعلى المزج بين الرؤية النظرية العميقة والسعة المذهلة للبرهان التجريبي، من خلال عمليات التفاعل والممارسات الواقعية، ونحتاج، هنا، إلى الربط والتكامل بين الأفراد وممارساتهم وأفعالهم في سياقحياتهم اليومية، ويتدفق هذا التكامل عبر عمليات التنشئة الاجتماعية الناجحة التي توفر الأساس لارتباطات أخرى، وغيرها من المؤسسات الاجتماعية الأخرى لإدارة المخاطر، وعلى تقديم وصف اجتماعي وتاريخي دقيق وثابت للعالم بمستويات عالية من الأمان والثقة .